عظماء قهروا اليأس

محمد كريم

يوسف الحمادى



ابن الإسكندرية وشهيد الوطنية

السيد محمد كريم

بقلم

يوسف الحمادى

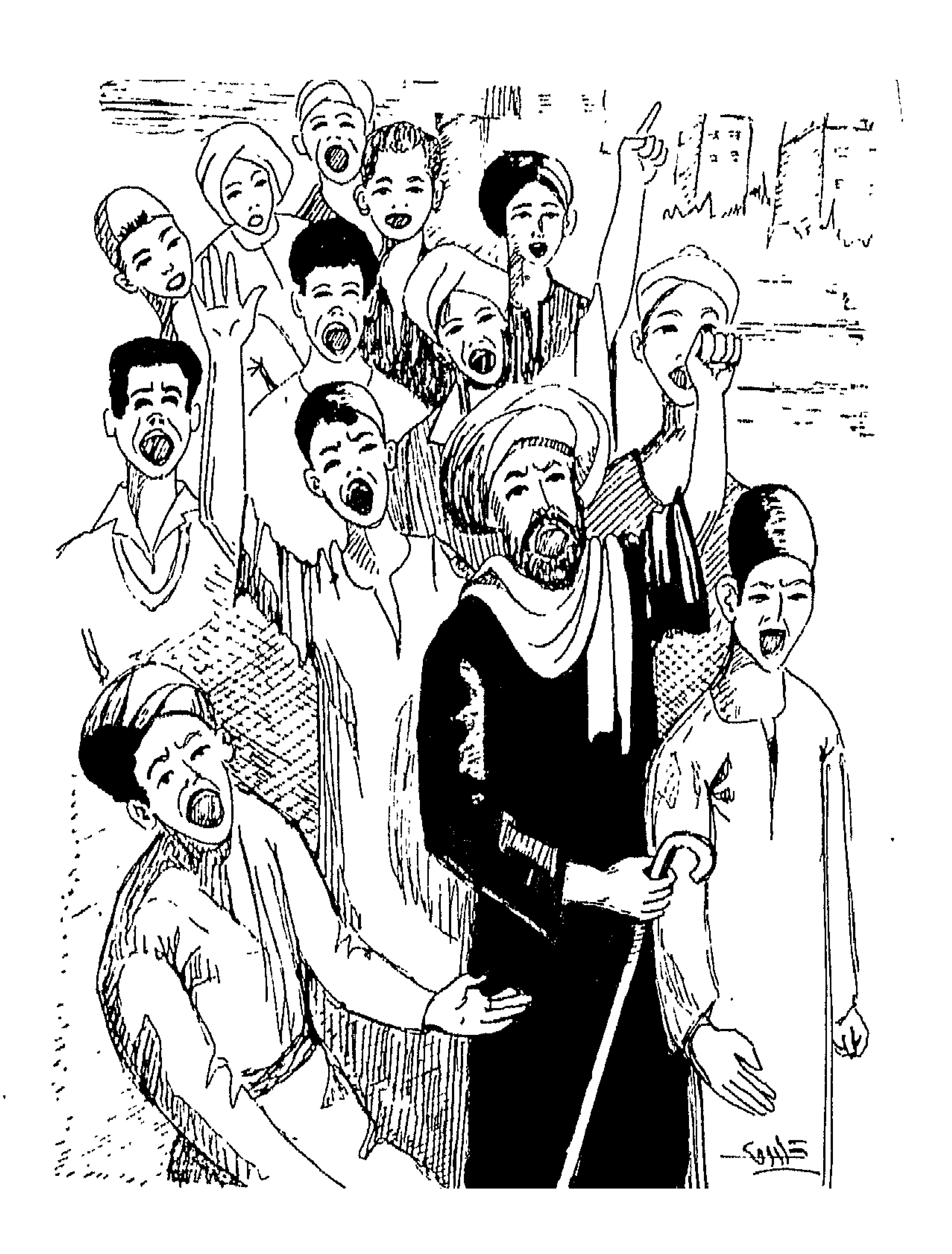
الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة

سعيد جودة السحار وشركاه



(١)

مولده

لم يُعْنَ تاريخُ مصرَ بطفولتِه ، ولم يحدِّدْ لنا سنَةَ مولِده ، ولكن صورةَ الغلافِ تهدِى إلى تقديرِ سنِّهِ .. تأمَّلْ فيها . إنها صورةُ ابنٍ من أبناءِ الإسكندريةِ ، ورائدٍ من روادِ الكفاحِ المصرى فى العصرِ الحديث ، ولهذه الصورةِ قصةٌ يعرفُها هذا العصرُ ، ويذكرُها الدارسوْن لأحداثِهِ ونضالِه ..

فى الثالثِ من يوليه سنة ١٧٩٨ م فُوجِئت الإسكندريةُ بحملةٍ حربيةٍ ضخمة ، نزلت بأرضِها ، وعلى رأسِ هذه الحملةِ الطاغيةُ الفرنْسِيُّ الجبارُ « نابليون بونابرت » ، يريدُ السيطرةَ على هذا الثغرِ ، والانطلاقَ منه إلى السيطرةِ على مصرَ كلِّها ، ثم على ما يحلو لهِ بعد ذلك من أراضٍ وبلاد .

وكان « نابليون » يقدِّرُ أن الإسكندريةَ ستبادرُ بالخضوع له ، وتسليمِ مفاتيحها إليه ، بعد أن رأت جيوشَه تكتسحُ بُلدانَ أُوْرُبَّةَ ، وترفعُ رايةَ فرنسا عليها .. ولكن ابنَ الإسكندريةِ ورائدَها أخلفَ تقديرَ « نابليون » وظنونَه ، فألهبَ الحماسةَ فى نفوسِ أبنائِها ، فهبُّوا للقاءِ الطاغيـة ، يحاربونـه بكـلِّ ما يستطيعون .. بالمدافعِ القديمة ، والبنـادقِ ، والسيـوفِ ، والخناجـرِ ، والسكاكينِ ، والعصِيِّ ، والحجارةِ ، وبغير ذلك مما وصلَت إليه أيديهم ، ولم يُلقُوا أسلحتَهم إلا بعدَ أن عجزُوا عن الاستمرارِ فى المقاومةِ ، وعرفوا أنها صائرةٌ إلى ضياع .

وكان البطلُ المناضلُ يعـرفُ مدى الخطـرِ الـذى عرَّضَ نفسَه له بهذه المقاومةِ العنيدة ، ويدركُ أنه إن وقع فى يَدِ « نابليون » فسوف يقتلُـه ،

ويمثِّل به(١) ، ولكنه كان يُرضِي بنضالِه نفسَه ووطنَه ودينَه ، وقدَّرَ له أنه يقفُ به موقفَ الأبطالِ الشرفاء ... أما « نابليون » فقد كتم غيظَه من هذا المصرىِّ البطل ، وتناسى ما لَقِيَ علَى يدِه من خسائرَ فى الأرواحِ والأموالِ والسلاح ، ورأى أن يعاملَه معاملةً ليِّنةً ؛ لعله ينجحُ فى أن يطوِيَه فى جيبِه ، ويشترىَ ضميرَه ، فيسكتَ عن احتلالِ الفرنسيينَ لبلادِه ، ولا يثيرَ أهلَها عليهم ..

دعاهُ « نابليون » بعد أن انتصرَ عليه وعلى المحاربين معه ، وقال له فى جمعٍ من كبراءِ الإسكندريةِ ووجهائِها :

« لقد أخذتُك والسلاحُ فى يدِك ، وكان لِيَ أن أعاملَك معاملةَ الأسيرِ ، ولكنك استبسلتَ(٢) فى الدفاعِ والشجاعة ، ولما كنتُ أعُدُّ الشجاعةَ عنصرًا لا ينفصلُ عن الشرفِ فإنه لا يَسعُنِى إلا أن أعيدَ إليك سلاحَك ، وآمُلُ أن تبدِيَ للجمهوريةِ الفرنسية من الإخلاصِ ما كنتَ تبديه لحكومةٍ رديئة » ، ويعنى بها حكومةَ المماليكِ فى مصر .

ونادى بأحدِ المصورين المصاحبين للحملة ، وطلبَ إليه أن يرسُمَ صورةً لهذا المناضلِ تقديرًا لبطولتِه وشجاعته ، وتخليداً لذكرى فتحِ الإسكندريةِ ، مدينتِه العريقةِ العظيمة .

ورُسِمَت الصورةُ ، وحفِظَها تاريخُ مصرَ والحملةِ الفرنسيةِ عليها ، وبقيت لتذكر بهذه الحملةِ ، ولتدلَّ على الكثيرِ من ملامحِ هذا البطل ، وقسَماتِه ، وسنِّه ؛ فإنك إذا أنعَمتَ النظرَ فيها(٣) وجدتها تصورُ رجلًا ، مفتوحَ الجبهةِ ، واسعَ العينين ، أشمَّ الأنف(٤) ، بارزَ عظام الخدَّين ، أشدق(٥) ، فى نظراتِه

---

(١) يمثل به : يعذبه عذابا شديدا ليكون مثلا لغيره .

(٢) استبسلت : ثبتَّ على موقفك الجرىء . (٣) أنعمت النظر فيه : دققت .

(٤) أشم الأنف : الشمم ارتفاع فى قصبة الأنف ، وكان من علامات الشهامة والمروءة .

(٥) أشدق : واسع الفم .

ذكاءٌ ودهاءٌ وعمق ، وفى ملامحِه هدوءٌ مع نزوعٍ إلى التحدِّى والإصرار ، ولطلعتِه هيبةٌ شديدة ، ووقارٌ يُحسُّه كل ناظرٍ إلى وجهه .

فإذا أحب المتأملُ أن يعرفَ من الصورةِ سنَّ صاحبِها وجدَ له لحيةً مسترسِلةً ، قد اشتعلَ الشيبُ فيها ، وكادَ يذهبُ بما كان لها من سوادٍ ، فلم يبقَ بها إلا بعضٌ من خُصَلٍ قليلةٍ فى طريقِها إلى الاشتعال .

ووجدَ أن ملامحَه وبياضَ لحيتِه وشاربِه تدلُّ أوضحَ دِلالةٍ على أنه فى نحوِ الستينَ من عمرِه ، وقد يزيدُ على ذلِك قليلًا أو ينقصُ قليلًا ، كما تدلُّ على هذه السن مناصبُه وأعمالُه التى أُسنِدت إليه ؛ فهو حاكمُ الإسكندريةِ ، ورئيسُ الديوانِ والجمارك بها ، والمشرفُ على ثغرِها وعلى ثغرِ رشيد .. ومثل هذه الوظائفِ والأعمالِ لا تسند عادةً إلا لرجلٍ فى مثلِ السن التى قُدِّرَت له .

وبذلك يكونُ مولدُه فى منتصفِ العَقْدِ الرابع من القرنِ الثامنَ عشر ، أى فى نحو سنة ١٧٣٥ م ، وهو تاريخٌ تقريبىٌّ ، لا يمكنُ القطعُ به[1] ، ولكن يمكن ترجيحُه على ما ذهب إليه بعض الباحثين من أنه وُلِدَ بعد ذلك بسنين .

فمن هذا البطل ؟

إنه هو السيدُ محمد كُرَيِّم ، ابنُ الإسكندريةِ ، وزعيمُها الشعبىُّ الشجاعُ الذى وقفَ فى وجهِ « نابليون » ، وقاومَه ، ومات شهيداً على يدِه ، فكان أولَ الزعماءِ الشهداءِ فى تاريخِ مصرَ الحديث .

(١) القطع به : القول به قولا جازماً مؤكدا .

(٢)

تربية أبيه لـه

وُلِدَ محمد كريِّم ، كما تقدَّمَ ، سنةَ ١٧٣٥ ، أو قريباً منها .

وكان والدُه رجلًا طيباً ، ذكيًّا ، أميناً فى عمله ، له حظٌّ من الصلاحِ ، وطَرَفٌ من الثَّقافةِ الدينية ؛ ولهذا درج معارفُه ومن يتعاملون معه على تلقيبِه بلقبِ « الشيخ » .

وكان هذا الشيخُ من قبَّانِى « الثغر » ، ومن المعروفينَ بين أربابِ(١) هذه المهنةِ به ، ولم تكن القبانةُ فيه من المهنِ الخاملةِ أو المغمورةِ(٢) ؛ لأنه كان يموجُ(٣) بالتجارِ ، وتشتدُّ فيه حركةُ التبادلِ والبيعِ والشراء ، فتشتدُّ بذلك حاجتُه إلى قبانين ، يقدرون للناسِ أوزانَ سِلَعهم ، وأثمانَها ، وما يتصلُ بها من رسومٍ للحكومة ؛ فإذا أجادَ القبانُ ذلك ، وعُرِفَ بمثلِ ما عُرِفَ به الشيخُ « كريِّم » من خبرةٍ ودقةٍ فيه ، ومن عدالةٍ وحسنِ خُلُقٍ أحبَّه الناسُ وفضلوه على غيرِه ، وإذا جمعَ إلى ما تقدم ما امتاز به هذا الشيخُ من ذكاءٍ ، ولباقةٍ ، وحس اجتماعيٍّ أحبه الحكام أيضا ، واجتذبَ عطفَهم ورعايتَهم .. وهكذا كان الشيخ « كريم » فى صفاتِه وخبرتِه ، وفى حبِّ الناسِ والحكامِ له . وعاشَ الرجلُ عيشةً مستورةً ميسورةً ، يُظلِّلُها الرضا ، وتشيعُ فيها المسرةُ والطُّمَأْنينة ، ولكن شيئاً واحداً كان يكدِّرُ عليه صفوَ حياته ، هو أنه كان صاحبَ بناتٍ ، ولم يَهبْ له القدرُ ابناً يُشبعُ رغبتَه فى الذكور ، ويجدُ فيه البهجةَ والعونَ على مشاقِّ العيشِ ومتاعبه ..

---

(١) أرباب : أصحاب .

(٢) المغمورة : المجهولة الخاملة .

(٣) يموج : يزدحم .

وكانت زوجتُه مثلَه فى هذا الشعور ؛ فقد عاشت تضرعُ معه إلى اللهِ تعالى أن يَمُنَّ عليهما بابنٍ صالح ، تستقرُّ به عيشتُهما ، ويجدان فيه طعمَ الهناءة ، ونورَ الأمل ... واستجاب الله تعالى دعاءَ الوالدين ، فمنَّ عليهما بطفلِهما « محمد » .. وجاء هذا الطفلُ كما يأمُلان ، وفوقَ ما يأمُلان : خَلْقٌ سَوِيٌّ(١) ، وبناءٌ مكتمل ، ووجهٌ مشرقٌ وسيمٌ ، ونظراتٌ صافيةٌ ، بها حدةٌ وفيها ذكاءٌ وعمق ، وملامحُ توحى بأن هذا الوليدَ سيكونُ له شأنٌ عظيمٌ فى مستقبلِه .

ونما الوليدُ فى رِحابِ أبويه ، ودرَجَ ، ومشى ، وبلغَ سنَّ التعلم ، فدفع به أبوه إلى الكُتَّاب ؛ ليتعلَّمَ القراءةَ ، والكتابةَ ، وأولياتِ الحسابِ ، ويحفظَ ما يستطيعُ من أجزاءِ القرآن الكريم .. وكان الطفلُ ذكيًّا قويًّا مُجدًّا ، ألمَّ بأكثرَ مما يُلمُّ به زملاؤُه فى الكتَّاب ، وحصَّل قدراً أكبرَ مما يُحصِّلون .

وشجعت نتائجُه فى الكُتَّابِ والدَه على أن يستمرَّ فى تعليمِه ، ويُعدَّه لدخولِ المعاهدِ الأزهريَّة ، ومضى الوالدُ فيما عزم عليه ، فأعدَّه لها ، وألحقَه بها ، فظفِرَ بقسطٍ من علومِها ومعارفها .

وبينما تمضى الأيامُ بهذه الأسرةِ وهى راضيةٌ هانئةٌ إذا بالدنيا تديرُ لها ظهرَها ، وتصدِمُها صدمةً قويةً ، تُصيبُها بدُوارٍ عنيف ... مات الشيخُ « كريم » ، وترك ابنَه الناشئ بغيرِ مهنةٍ ولا وظيفة ، كما خلَّف أسرتَه ذاتَ العددِ بغير ثروةٍ من مالٍ أو عقارٍ يعتدُّ به .

وكان على الابنِ أن يقطعَ تعليمَه ، ويهيئ نفسَه لكى يحملَ عبءَ هذه الأسرةِ ... ولم يتأخرْ ، ولكنه وجدَ طريقَ الكسبِ صعباً ، وأبوابَه ونوافذَه مغلقةً أو كالمغلَقَة ... وأحسَّ أصدقاءُ والدِه ذلك ، وكانوا يعرفون صلتَه بعظيمِ الإسكندرية (ذى الوزارتين فيها) ، فرفعوا إليه مأساةَ أسرةِ الشيخ « كريم » ،

---

(١) سوىّ : مكتمل .

فرقَّ لها ، وأشفقَ بها ، وأمرَ أن يلحق الابنُ بأحدِ محالِّ القبانة التابعةِ له ، ليتدربَ فيه ، ويصبحَ قباناً كأبيه الشيخِ « كريم » .

وبهذا العملِ بدأ محمد كريم أولى خُطواتِه على طريقِ الحياةِ العملية ، وأصبح عمادَ الأسرةِ وعائلَها(١) ، وكان قد أفادَ من والدِه الكثيرَ قبل أن يفارقَ الحياة ، ويتركَ الأسرةَ لعواصفِها .

أفاد من ثقافةِ أبيه وخبرتِه بمهنةِ القبانةِ ، فشق طريقَه فيها بنجاح .

صحِبَ أباه طفلًا وصبيًّا فى غدوِّه إلى عملِه ورواحِه منه ، فعرف أصحابَه ومن يتعاملون معه ، واستمعَ منهم ، وتحدثَ إليهم ، وناقشَهم فيما يتناولون من شئونٍ ، ووجدَ منهم إعجاباً بلباقتِه وفطنتِه ، وتقبُّلًا لنقدِه وتعليقاتِه البارعة الذكية ، فساعده ذلك على أن يكونَ الطفلَ الاجتماعىَّ حين كان طفلًا ، والناشئ الاجتماعىَّ حين جاوزَ مرحلةَ الطفولة .

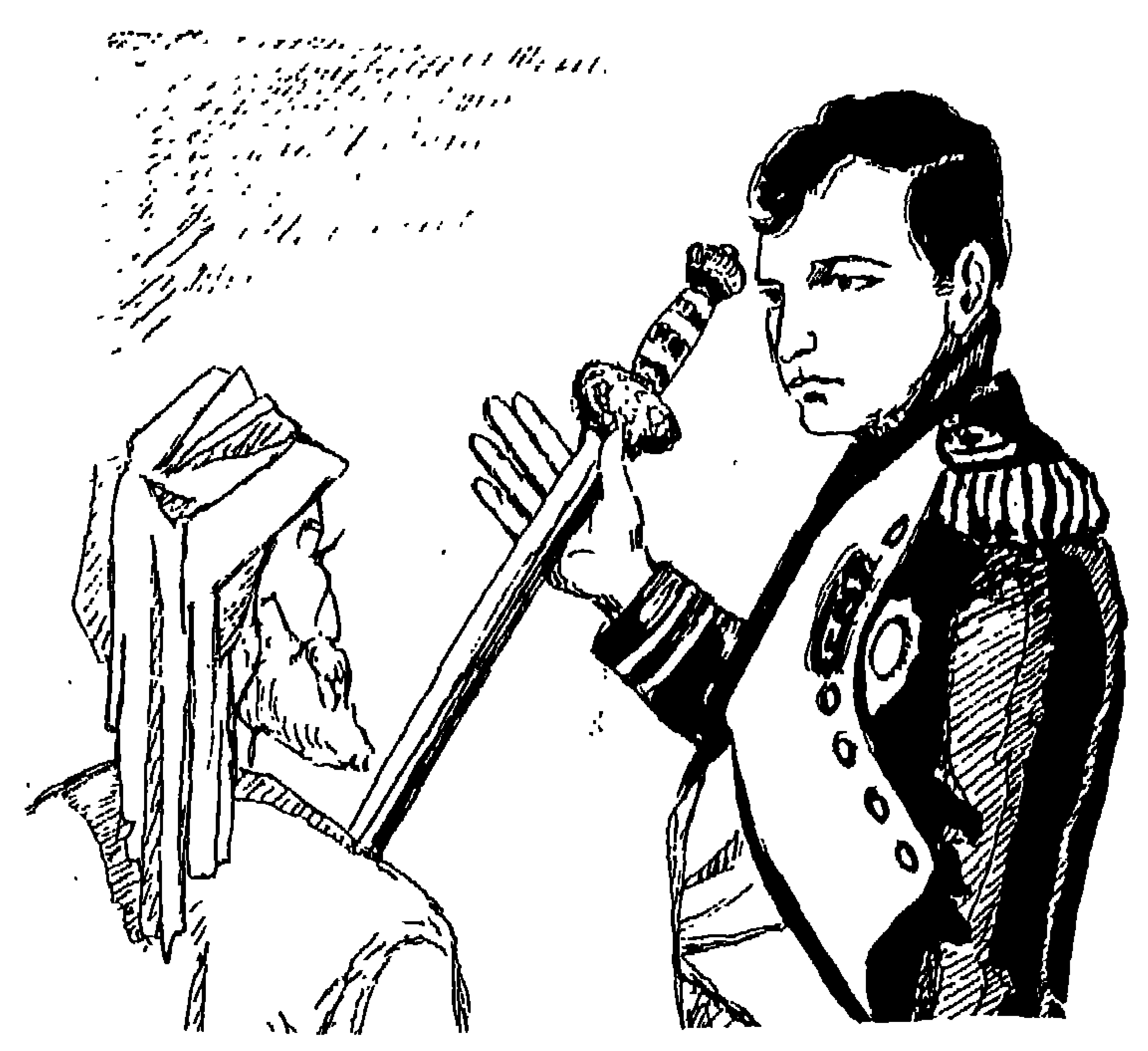
أُتيحَ له أن يعرفَ ، من طريق هذا الوالدِ ، الكثيرَ عن التياراتِ السياسية فى مصر ؛ لأنه كان يعملُ مع التجارِ ، ويعيشُ بينهم ؛ وكان هؤلاء التجارُ إذا فرغُوا من عملِهم اندفعوا فى ثرثرةٍ سياسيةٍ متصلةٍ ، واندفع أبوه يشاركُهم فيها ، وكأنهم حلبةُ(٢) صراعٍ كلامىٍّ لا يهدأُ ولا ينتهى ... وكانوا فى مناقشتِهم وجدلِهم يختلفون ما يختلفون ، ولكنهم يتفقون على شيءٍ واحد ، هو أن سياسةَ البلادِ تمثِّل لُعبةَ الفريسةِ والوحش ، والفريسةُ دائماً هى مصر ، أما الوحشُ فهو الوالى العثمانىُّ الذى يعيِّنه الخليفةُ فى تركيا ليديرَ شئونَ مصر ، فيحكمَ أبناءَها بالسيفِ ، ويمتصَّ دمَهم بالضرائب ؛ ليُشبعَ نَهمَه ، ويُرضِىَ مطامعَ الخليفةِ الذى لا يقنَع ، أو الوحشُ هو من يتغلَّبُ من المماليكِ على الوالى العثمانىِّ ،

(١) عائلها : من يسعى على رزقها .
(٢) حلبة صراع : فرسانِ صراع .

فيشاركُه فى الحكمِ ، أو ينتزعُه من يدِه ، ثم يتجهُ إلى المصريين المسحوقين[١] ، فيستنزفُ أموالَهم ؛ لينعمَ بها هو وبطانةُ السوءِ التى تعملُ معه .

كما أُتيحَ لهذا الابنِ أيضاً أن يعرفَ ، من أبيه ، غيرَ قليلٍ ، عن الرسومِ ، والضرائب ، وما يُفرضُ على الشعبِ منها ، وما يقاسى بسببِها من عذابٍ ، وتشردٍ ، ومعاناةٍ فى أعماقِ السجون .

هكذا كان محمدُ كريم حين تركه أبوه ... شابٌّ قد جاوزَ العشرين ، له خبرتُه بمهنةِ القبانةِ ، وله شيءٌ من الثقافةِ الاجتماعيةِ والسياسيةِ والاقتصاديةِ ، وحظٌّ من المعارفِ الدينيةِ واللغوية ، فوق ما له من لباقةٍ[٢] ، ورهافةِ حسٍّ ، وخفةِ روح ، وقوةِ جاذبيةٍ تحببُه إلى الناس ، وتحببُهم إليه .



نابليون يسلم السيف للسيد محمد كريم
فى تقدير واحترام

(١) المسحوقين : المطحونين .

(٢) لباقة : الحذق والبراعة .

(٣)

كفاح محمد كريم فى سبيل العيش
بعد موت أبيه

أحسَّ محمد كريِّم الشابُّ الناشئ أنه أصبح ، بعد موت أبيه ، وحيداً ، وكانت الصدمة قاسية ، واليأسُ معها عنيفاً يهدد كيانَ الأسرةِ المنكوبة ، ولكن الشاب القويَّ صممَ أن يقهرَ هذا اليأس ، وأن يشقَّ طريقَ العيشِ لها بينَ الأشواكِ والصخور .

وكان مدهشاً وعجيباً فى خطواتِه ! لقد أثبتَ أنه جديرٌ حقًّا بالعبءِ الذى يحمِلُه ، والرسالةِ التى يواجهُها ! كان صبىَّ قبانٍ بادئاً فى هذه المهنةِ ، فأصبحَ بعدَ قليلٍ قباناً مستقلا .

نشأ فى عددٍ محدود من الحرفاءِ(١) ، ثم صار فى جمع غفيرٍ(٢) من التجارِ وأصحابِ الحاجاتِ الذين يتعاملون معه ويتهافتون عليه .. بدأ بدكانِ قبانةٍ واحد ، ثم تحول الدكانُ دكاكينَ والمحلُّ محالَّ .

رآه الناس يزنُ بيده ويباشر كلَّ صغيرةٍ وكبيرة بنفسِه ، ثم رأوه وقد اتسعَ عمله ، وأصبح لَهُ صبيانٌ ومساعدون ، يعملون تحتَ إمرتِه ، ويتصرفون بتوجيهِه وتعليمه .

لم يكنْ كسبُه شيئاً يذكَرُ ، ثم نما ، واتسع لمطالبِه ومطالبِ أسرتِه وقصَّاده .

لم يكن اسمُه معروفاً فى غيرِ حيِّه ، ثم ذاعَ وتخطَّى حدودَه إلى مختلِف أحياءِ الإسكندرية ؛ حتى عرفهُ أكثرُ الناسِ فيها ، وصار من القبانين المعدودين بها ،

---

(١) الحرفاء : من يتعاملون معه . (٢) غفير : كثير .

وحتى لقبوه بلقبِ « السيد » ، ودرَجوا على مخاطبته باسم السيد محمد كريم ، مع أن مثلَ هذا اللقبِ خاصٌ بالأشرافِ وذوى النسبِ الرفيع .

ولم يظفر السيدُ محمد كريم بهذه المكانةِ بين أهلِ الإسكندريةِ عفواً ، أو على غيرِ أساسٍ ودونَ مبرر ، وإنما كان لها ثمنُها من خلُقِه وطبيعتِه ومعاناتِه .. كان لَبِقاً يستهوى أصحابَه بحديثِه ومعاملتِه ، مثقفاً يجتذبُ إليه المثقفين بما يتناول من معارفَ وطرائِف[1] ، متزناً عادلا ، يطمئنُّ المتعاملون إلى موازينِه وحساباتِه فيتهافتون عليه ، بارًّا رحيما يُشفِقُ غايةَ الإشفاقِ بالضعفاءِ ، ويعطفُ كلَّ العطفِ على البائسين ، متميِّزاً فى قوةِ شخصيتِه ، يهابُه المحتسبون[2] ، وينزلون على كلمتِه فى الرفقِ بالتُّجارِ ، والشفقةِ بدافعِى الضرائبِ ، والرحمةِ بسائرِ المواطنين ؛ ولهذا ظَفِرَ بالحبِّ والتقديرِ من أبناءِ الإسكندرية ورجالِ الحكم فيها .

ومرت السنون ، وتتابعت الأحداثُ فى مصر ، تنتقل بالمصريين من فتنةٍ للمماليكِ إلى فتنةٍ أقسى ، ومن مؤامرةٍ إلى مؤامرةٍ أشد ، وهو يعيشُ فى غمارِ[3] هذه الفتن التى لم تخلص الإسكندرية من آثارِها ... شَهِدَ الصراعَ بين « راقم » باشا الوالى العثمانىّ المتغطرس[4] ، وعلىٌّ بك كبيرِ المماليك الذى وقف فى وجه هذا الوالى ، وعزلَه ، وحارب الخلافةَ العثمانيةَ ، وخاضَ[5] معها عدة معاركَ انتصر فيها سنةَ ١٧٦٨ ، فتألَّقَ[6] بذلك نجمُه ، وذاع صيتُه ، وأصبحت له الكلمةُ النافذةُ فى مصر ، ثم تقلبت به الدنيا ، وتنكرت له ، وكانت نهايتُه على يد مملوكٍ آخرَ قوىٌّ عنيد هو محمد أبو الذهب الذى هزمَه ، وقبض عليه ، ثم أسرَه

(١) طرائف : معلومات جديدة .
(٢) المحتسبون : مراقبو الأسواق .
(٣) غمار : وسط
(٤) المتغطرس : المتكبر المتجبر .
(٥) خاض : دخل .
(٦) تألق : لمع .

فى خيمةٍ ، عذبَه فيها أقسى العذاب ، حتى خرج منها على محفَّةٍ ، ليلقى حتفَه فى دارِه بالأزبكية .

شهد السيد محمد كريم هذا الصراع ، وعاصر بعدَه حروباً استمرت أكثر من عشرين سنة بين رأسينِ من رءوس المماليك ، كانا يتنازعان على مشيخةِ البلاد ، فيتفقانِ حيناً ، ويختلفان فى أكثر الأحايين ، وهما مراد بك ، وإبراهيم بك .

وفى أثناء هذا الصراعِ عمت الفوضى أنحاءَ البلاد ، وشاع النهبُ والسلبُ فى الإسكندريةِ وغيرها ، وحرَصَ كلٌّ من هذين المملوكين على أن يغتصبَ ما يستطيعُ من أموالِ الشعب الفقيرِ المسحوق ، ويعيشَ على عرَقِ المحرومين ، وكدِّهم الضائع . فَزِع السيِّدُ محمد كريِّم ، وقال فى نفسه : « وماذا بعدُ ؟ ماذا جنت الإسكندريةُ حتى تعيشَ ضحيةَ الصراعِ بين إبراهيم بك ومراد بك ؟ أليس من حقِّها علىَّ أن أعملَ لإنقاذِها مما تعانى من فسادٍ وخرابٍ بسببِ هذا الدمار ؟ ، ومَن أولَى بذلك منى وقد منحتنى من حبِّها ما أستحقُّ وفوقَ ما أستحق ؟ سأبادر ! سأنهضُ بحقِّها علىّ وواجبى نحوها ! » .

ولم يَطُلْ تفكير السيد محمد كريم ؛ فقد كان مراد بك يبحث عن رجلٍ قوىٍّ الشخصيةِ فى الإسكندرية ، محبوب من أهلِها ، قادرٍ على إشاعةِ الأمن فيها ، وجمعِ الضرائب منها فى غير سُخطٍ ولا ضجة ، ولم يجد لذلك أفضل من السيد محمد كريم ، فبادر بتعيينه حاكماً لها ، ومديراً لجماركها ، ومشرفاً على ثغرِها وعلى ثغرِ رشيد ، وكان ذلك مع العقدِ الأخيرِ من القرنِ الثامنَ عشر .

وتولى الحاكمُ الجديدُ سلطاتِه ، فَسَعِدَ بمدينتِه ، وسَعِدت به مدينتُه ، وكانت رحمةً لها ، ومظلَّةً عليها ، فى وقتٍ ضاعت فيه الرحمةُ ، وتعرضت مدنُ القطرِ وقراه للهيبِ الحروب ونزيفِ الفتن والثورات والمؤامرات .



الشاب محمد كريم فى أحد المحال الخاصة بالقبانة ،
يزن للناس وهم يتهافتون عليه

(محمد كريم)

(٤)

قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر

كان السيد محمد كريم مثلًا عاليا فى عملِه الجديد ... رسم لنفسه أهدافاً التزمها وعَمِل على تحقيقِها ، وتتمثل هذه الأهدافُ فى رفعِ المظالم عن الناس ، وتوفيرِ الخدماتِ لهم ، ونشر الأمن بينهم .. فى وقتٍ كانت مصرُ تتعرض فيه لعواصفَ عاتيةٍ من الصراع بين الخلافةِ والمماليك ، وبين المماليك بعضِهم مع بعضهم ، وبينهم وبين الشعبِ المستعبَدِ الذى يعمل ويكُدُّ ؛ ليجنِىَ الحكامُ المستبدون ثمرة عمله ، ويَدَعوهُ[1] للفقرِ والجوعِ والحرمانِ .

ومما أعانه على تحقيقِ أهدافه أنه كان تقيًّا ورِعاً[2] ، عفيفَ اليد ، مترفِّعاً غايةَ الترفع عن ظلمِ الناس ، واستغلالِهم ، والنَّيلِ من أموالهم بغير حق ، وكان بهم رحيماً رفيقاً ، ولكن فى حكمةٍ وحزم ؛ فهو يأخذُ منهم الضرائبَ والرسومَ لمراد بك ، ولكنه يرعى حالَهم ، فلا يكلفُهم منها ما لا طاقةَ لهم به ، وهو يحافظُ على المالِ العام ، ولكنه ينفقُ منه ما يُصلِحُ من شئونِهم ، ويُعينُهم على الحياةِ الراضية الكريمة .

وارتاح السيد محمد كريم لهذا الجهدِ الكبيرِ الذى أرضى به نفسَه ، وأقنعَ به المماليكَ ، ووفَّى به للإسكندريةِ حقَّها وحقوقَ أبنائِها عليه ... وظهر أثرُ ذلك فى استقرارِها وسعادتِها بالحكم الجديد ... ولكن حدثت المفاجأة .

ظهر نابليون بونابرت فى فرنسا ، وكان قائداً طموحا ، مزهُوًّا بنفسه[3] ، مغروراً بقوتِه ، يريدُ أن يجعلَ من فرنسا أعظمَ دولةٍ على وجهِ الأرض ، فاندفع

---

(١) يدَعُوه : يتركوه . (٢) ورعا : تقيا . (٣) مزهوا بنفسه : مغرورا بها .

بين دولِ أُورُبَّة كالسيل ، يدخلُ الواحدةَ منها ، فيكتسحُها ، ويرفعُ عليها الرايةَ الفَرنسيَّةَ ، ثم ينتقِلُ منها إلى غيرِها وغيرِها ، فلا تقِفُ فى وجهِه جبالٌ ، أو أنهارٌ ، أو جيوش .

ونظرَ فوجدَ غير قليلٍ من هذه الدول فى قبضتِه ، فازداد طموحاً وغروراً ، وسرَحَ به عقلُه ، يحلُمُ حُلْماً ورديًّا ساحراً وجديداً . لم يحلُمْ هذه المرةَ بدولةٍ من دول أُورُبَّة ، ولكن طار به حُلْمُه إلى بعيدٍ بعيد .. أحبَّ فى هذه المرةِ أن يملكَ مفتاحَ الشرق ، ويسيطرَ[1] على طريقِ الهند ، ويحولَ البحرَ المتوسطَ بحيرةً فرنسية يتحكمُ فيها ، وفيما يمرُّ على ظهرِها من سفنٍ وبوارج[2] ؛ وذلك بامتلاك أغلى جوهرةٍ فى حوضِ هذا البحر ، وهى مصرُ التى تهيئ له أعظمَ فرصةٍ لضربِ إنجلترا عدوّتِه اللَّدُودِ[3] . يقول عن مصرَ فى هذا الحُلْمِ :

« سيكونُ لنا فيها الطريقُ المفضِى إلى الهند ، ويسهلُ علينا أن ننشئَ مستعمرةً من أجملِ مستعمراتِ العالَم ، وإذا أردنا أن نهاجمَ إنجلترا فلْنهاجِمْها من مصر » .

وأحب نابليون أن يجعلَ حُلمَه حقيقةً ، فأقنع حكومتَه باحتلالِها ، وجرَّدَ لذلك جيشاً من ستةٍ وثلاثين ألفَ جنديٍّ ، تحرك به أسطولُه يشقُّ البحرَ المتوسطَ ، من موانى فرنسا إلى الشرقِ ، فى مايو سنة ١٧٩٨

وكان نابليون يعتقدُ أن هذا البحرَ مفتوحٌ أمامه ، وأن الطريقَ فوقَ أمواجِه ممهَّدٌ له ، وأن حملتَه التى يقودُها سِرٌّ لا يعرف أحدٌ وجهتَه ولا هدفَه ، ولكن « نلسن » قائدَ الأسطولِ الإنجليزيِّ كان يتلقَّطُ أخبارَه ، فلم يَغِب عنه قصدُه ، فسبقه ببعضِ سفنه إلى الإسكندرية ، وألقى مراسيَه على مسافةٍ من شواطئِها ،

---

(١) يسيطر : يفرض سلطانه . (٢) بوارج : سفن ضخمة .
(٣) اللدود : الشديدةُ العداوة .

ثم بعث بعشرةٍ من ضباطِه على ظهرِ زورقٍ حربىٍّ إليها ؛ ليكونوا رسلًا منه إلى حاكمِها ..

والتقى هؤلاءِ بالسيد محمد كريِّم ، فسألهم :

ـــ ما جاء بكم إلى هنا !

أجاب كبيرهم :

ـــ جئنا ننصحُ ونحذِّر !!

قال الحاكم :

ـــ بماذا تنصحون ؟ وممَّ تُحذِّرون ؟

رد الضابطُ :

ـــ إن جيش نابليون قادمٌ إليكم ، ونريدُ أن ندافعَ عنكم .

فكر الحاكمُ مليًّا(١) ، ثم رأى أنه إن سمَحَ لهم بنزولِ المدينةِ أُعطى إنجلترا حقًّا ليس لها ، فى سبيلٍ مجهولٍ لا يدرى ماذا يكونُ من أمرِه ، فأقبلَ بوجهِه عليهم ، وقال لهم :

ـــ شكراً ، لا نريدُ منكم أن تنزلوا بمدينتِنا ، ولا أن تدافعُوا عنا !

قال الضابط :

ـــ إذن فدعونا نقف على مقربةٍ من الشاطئ ، فنتزود من المدينةِ بالمؤَنِ والماء ، فإذا هجم عليكم نابليون تصدَّينا(٢) له !

أجاب الحاكم :

ـــ هذه بلادُنا ، وليس لكم ولا لغيرِكم علينا من سبيلٍ ، فاذهبوا عنا .

رجع الضباط إلى « نلسون » ، فوجدَ أن أملَه فى خديعةِ حاكمِ الإسكندرية قد خاب ، وانسحب بسفنِه إلى عُرْضِ(٣) البحر ... وخلا السيد محمد كريم

---

(١) مليا : فترة غير قصيرة .　(٢) تصدينا له : تعرضنا له .　(٣) عرض : ناحية .

إلى نفسِه يفكرُ ، وكان يعرفُ الكثيرَ عن نابليون وانتصاراتِه وصَلَفِه(١) ، ولكنه لم يكن يتوقعُ منه أن يتهورَ ، فيزجَّ(٢) بجيشه فى تياراتِ الشرق وجحيمِه ... عند ذاك تنبه كريِّم ، وبادرَ ليحصنَ مدينتَه ، غير أن أكثرَ جهدِه ضاع وسط القلاع المهدَّمةِ ، والحصونِ الخربة ، والخطوطِ الدفاعية الباليةِ الواهية .

ومرت أيامٌ ، وصدق ما حذَّر منه « نلسون » — بلغ أسطولُ الفرنسيين الإسكندرية ، ونزل بينَ « الدخيلة » و « العجمى » ، وبادر نابليون بإرسالِ منشوراتٍ بالعربية إلى أهلها ، يزعم فيها أنه يخدُمُ المصريين ، ويحبُّ المسلمين وخليفتَهم ، ويقدِّرُ دينَهم ، وأن كل ما يُريدُه هو إنقاذُهم من المماليكِ أعدائِهم ، وأعداءِ الخلافة ، وأعداءِ الفرنسيين الذين يثمِّرون أموالَهم فى مصر .

لم تنخدع الإسكندريةُ بالمنشوراتِ ، بل صممت هى وحاكمُها على مقاومةِ الحملة الفَرَنسية ، أما نابليونُ فلم ينخدعْ ببلدٍ كما انخدعَ بهذه المدينةِ ؛ فقد استطلعَ أحوالَها فغره خلوُّ ثغرِها من القلاعِ والمدافعِ والذخائرِ ، فتوهم أنها ستَخِرُّ راكعةً تحت قدميه ، مستسلمةً له بدون مقاومة ، كما استسلمت له مدنٌ أقوى وأعزُّ منها .. وضَحِكَ ضحكاتٍ عاليةً ساخرةً منها ومن وسائلِ الدفاعِ عنها .. ولكنها كانت ضحكاتٍ غافلةً ، ما لبثت أن تبددتْ فى الهواء .

---

(١) صلفه : زهوه .   (٢) يزج : يدفع .

(٥)

مقاومة الإسكندرية للحملة الفرنسية

كان السيدُ محمد كريِّم يعرفُ الكثيرَ عن ضعفِ قلاعِ الإسكندرية أمام قوةِ نابليون ، ويعلمُ أن العثمانيين والمماليكَ أهملوا المدينةَ ، ولم يعملوا على تحصينِها .. وكان الموقفُ يدعو إلى اليأسِ ، ولكنه لم ييئس ولم يتخاذلْ(١) ، بل صمم على الدفاعِ عنها ، وبثَّ أعوانَه فيها ، يدعون كلَّ قادرٍ من أهلِها إلى الجهادِ في سبيلها .. وسُرْعانَ ما تحولت الإسكندريةُ شعلةً من الحماسة ، وخليةً من العملِ الجادِّ لرد العدوانِ والمعتدين .

القناصةُ يحتلون المواقعَ الآمنةَ التى يستطيعون منها تصيُّدَ الأعداء . الجنودُ يحصنون قلاعَ المدينة ويتحصنونَ بها . الأهالى يقفون مستعدين من وراءِ الأسوارِ والمتاريسِ والأبوابِ والنوافذِ بما فى أيديهم من بنادقَ وسكاكينَ وعصيٍّ وحجارة . بعض الناس صَعِدُوا إلى سطوحِ المنازل ، وكمنُوا خلف سواترِها بما لديهم من أسلحةٍ . السيدُ محمد كريم أسرع بجندِه إلى قلعةِ « قايتباى » ، فاتخذَها حصناً لدفاعه ، ومركزاً لتنظيمِ المقاومة عن المدينة ، ومنها أصدر أوامرَه إلى فرقةِ الفرسانِ معه ، وكانت أربعَمائةٍ ، بأن تناوشَ(٢) الفرنسيين ؛ لتشغلَهم حتى يأتيَه مدَدٌ من مراد بك يعينه عليهم ، وكان قد أرسل إليه يقول : « إن العمارةَ التى حضَرَت هذا اليومَ مراكبُ عدةٌ ، ما لها أولٌ يعرفُ ، ولا آخرٌ يوصَف ، فباللهِ ورسولِه أدركونا بالرجال ! » .

ونظر نابليون ، فوجد حاكمَ الثغر الأعزلِ يحاولُ تحصينَه ، فعاد إلى سخريته

(١) يتخاذل : يتراجع . (٢) تناوش الفرنسيين : تتناولهم باشتباكات خفيفة .

منه واستهزائِه به ، ثم صحا من هذه السخرية فى دهشةٍ بالغة . لقد أدرك أنه أخطأ فى تقديرِه لعظمة ابن الإسكندرية وأهلِها .. فسارعَ إلى قوادِه ، فالتقى بهم ، ورسم معهم خطةَ احتلالِ المدينة ، ووزَّعَ العملَ بينهم .

وتقدم ، فاعتلى ربوة « عمودِ السوارى » ، ونظر حولَه هنا وهناك ، كأنه يقول للإسكندرية : افعلى ما شئتِ ! إنك لن تستطيعى شيئاً ! وأصدر إشارة إلى جنودِه ، فانصبَّتْ نيرانُهم عليها من كلِّ ناحية .

لم تنحن المدينةُ العريقة له[1] ، بل وقفت شامخةً ، تواجهُ عدوانَه الظالم الغاشمَ بكلِّ ما تستطيع ... بمدافعِ القلاع ، ورَصَاصِ القناصة ، وهجماتِ الفدائيين . ولكنها عجزت عن أن تدفعَ بها نيرانَ نابليون وجيشَه ، فحولت المقاومةَ إلى الشوارعِ والحاراتِ والمنازلِ ، ونالت بها من الفرنسيين ما لم تنلْه بالحربِ المنظمةِ .

وتعرض نابليونُ نفسُه فى غمارِ المعركة لرصاصةٍ كادت تودِى بحياتِه[2] ، وأُصيبَ الجنرال « مينو » بحجر هوى[3] به من مكانه إلى الأرض ، وفقدَ الجنرال « ماس » حياته مع عددٍ من معاونيه ، وأُزهِقت[4] أرواحُ عددٍ من الفرنسيين يزيدون على ثلاثمائةٍ فى نحو ساعتين ، ووَدَّ نابليون لو سكتت المقاومةُ ، ولكن البطلَ الإسكندرىَّ أصرَّ عليها ، ولم يتراجعْ إلا بعد أن عجزَ عنها أمام قواتِ نابليونِ وأسلحتِه الحديثة .

وسكتت معركةُ العزةِ والكرامة ، ولكن بعد أن لقَّنت نابليونَ درساً مرًّا .. وفكر الطاغيةُ ، فابتلع المرارةَ ، وتدرَّعَ بالصبْرِ .. ودعا السيد محمد كريم ، فرحبَ به ، وأعادَ إليه سلاحَه ، وعاملَه معاملةَ الأبطالِ الشرفاء .. وظن أنه

---

(١) العريقة : القديمة فى مجدها وتاريخها .
(٢) تودى بحياته : تقضى عليه .
(٣) هوى به : سقط به .
(٤) أزهقت : خرجت .

بهذه المعاملةِ قد استهواه[1] ، واستطاع أن يجعلَ منه تابعاً له ، موالياً لفرنسا وأبنائِها ، ولكنه كان واهماً مخدوعا ؛ فقد تظاهر السيدُ محمد كريم بالرِّضا عن هذا اللقاء ، ولكنه كان فى أعماقِه مصريًّا ثابتاً على مصريتِه ، وإيمانِه الراسخ بوطنِه .

ولمح أحدُ رجال نابليون هذا الشعورَ فى نظراتِه العميقةِ ، وملامح وجهِهِ المعبرةِ فقال :

« لقد لاحَظْتُ فى ملامح هذا الرجلِ الذكاءَ والدهاءَ ؛ فكأنما كان يكتمُ عواطفَه عنا » .

* * *

وانصرف كلٌّ من الرجلين ، بعد هذا الموقِف ، إلى وجهتِه .

نابليون يتوهمُ أن السيدَ محمد كريم أصبحَ فى جيبِه ، وأن الإسكندريةَ صارت فى يده ، فيُسرِعُ بدفْنِ موتاه حولَ عمودِ « السوارى » ، وتعزفُ لهم موسيقاه لحنَ الوداع ، ثم يوجِّهُ جهدَه لاحتلالِ مصر ، فيسير بنفسه على رأسِ فريقٍ كبيرٍ من جيشِه ورجالِ حملته إلى دمنهور .

والسيدُ محمد كريم يعمل بجدٍّ لا يعرفُ اليأس ، ولكنه يتحولُ من النضالِ الجهريِّ إلى النضالِ فى الخفاءِ ومن وراءِ الستار ؛ فهو يثيرُ على نابليون علماءَ الإسكندريةِ الذين حاولَ خداعَهم ، ويبعثُ فى القرى والمدنِ التى يمر بها هو ورجالُه فدائيين يتصيدونَهم ، ودعاةً يدْعُونَ أهلَها أن يقاطعوهم ، ويمنعوا عنهم كلَّ مساعدة ، ويسارعُ فى استعجالِ مراد بك للقائهم ، ولا يهدأ أو يتوقف . ونجح فى حركتِه السريةِ ، واستطاع أن يُذِيقَ بها نابليونَ ورجالَه أقسى المعاناةِ .

---

(١) استهواه : اجتذبه .

(٦)

نابليون ورحلة العذاب

خرجَ نابليون من الإسكندريةِ ، وهو يظنُّ أنها أصبحت معقِلًا آمناً ، يحمى ظهرَه ، ويُمدُّه بما قد يحتاجُ إليه من مساعدةٍ ؛ فقد ترضَّى أعيانَها وكبارَ رجالِ الدِّينِ بها ، وشدَّهم إليه بما أعلن فيهم من أنه يقدِّسُ الدينَ الإسلاميَّ ، ويؤمنُ بوحدانيةِ اللهِ ورسالة نبيِّه ، وجذبَ عامَّةَ الناسِ بما قدَّم لهم من وعودٍ عن إنقاذِهم من ظلمِ المماليكِ ، وحكمِهم الذى يقومُ على السلبِ والنهبِ والاستبداد ... وأخذته النشوةُ[1] وهو يسمعُ تصفيقَ الأكفِّ له ، وانخداع العامة به ... ولم يترك هذه المدينةَ العريقةَ إلا بعد أن عين « كليبر » أحدَ رجالِه الكبارِ حاكمًا عامًّا لها ، وبعد أن أعادَ إليها محافظَها السيد محمد كريم ، وأقام « مينو » أحدَ قواده المعدودين حاكماً لرشيد . عند ذلك قال لنفسه :

« الآن يا نابليون تدعُ عروسَ البحر المتوسط ، وتبدأ رحلتَك لاحتلالِ مصرَ ، مفتاحِ الشرق ، وملتقى القاراتِ الثلاثِ ، وأرض الحضاراتِ والآثارِ والتاريخِ .. إن الدنيا الآن تنظرُ إليكَ يا نابليون حين ترفعُ رايتَك على مصرَ .. مصرَ العظيمة التى ضيعها المماليكُ فأصبحت ضعيفةً عاجزة ، إن رحلتَك ومن معَك فيها ستكونُ رحلةَ نزهةٍ ، وسوف يحتلُّها جنودُك وهم فى نشوةٍ ورقصٍ وقصفٍ[2] وغناء » .

* * *

(١) النشوة : الفرحة التى أسكرته .

(٢) قصف : لهو ولعب .

واندفع نابليونُ برجالِه إلى دمنهور ، واندفعت الصدماتُ تواجهُه وتقاطعُه ، وكان من ورائِها حبُّ أبناءِ مصرَ لمصر ، والحركةُ السريةُ للزعيمِ الشعبيِّ الكبيرِ السيد محمد كريم ؛ فقد كان رجالُه يسبِقون نابليون ؛ ليحوِّلوا رحلتَه رحلةَ عذابٍ وجحيم .

ونظر نابليون ورجالُه ، فأخذتهم الدهشةُ والحَيْرةُ معا .

أرادوا خيلًا تحملُهم وتحملُ أسلحَتَهُم ، ولكن الخيلَ اختفَت ، كأن الأرضَ انشقَّت وابتلعتْها ، فمشى أكثرُ رِجَالِه على أقدامِهم ، يلهثُونَ بما يحملون من ذخائرَ ومهمات .

أحبَّ أن يجدَ هو ورجالُه الماءَ النقيَّ ؛ ليطفئوا ظمأهم ، ولكن الناسَ ضنُّوا[1] به عليهم ، فعانَوْا أشدَّ المعاناةِ من لهيبِ الظمأ فى حرِّ الصيفِ القاتل .

كان الرصاصُ ينطلقُ عليهم بين الحينِ والحينِ من مكامِنَ[2] خفيةٍ ، لا يَرَوْنَها ، ولا يعرفون قنَّاصتَها ..

تلقَّاهُم الناسُ بروحٍ ساخطةٍ عليهم ، أو مستهزئةٍ بهم ، أو مصرَّةٍ على الانتقام منهم ، ولم يروا قَطُّ بشاشةً فى وجهٍ[3] ، أو عوناً من أحد .

وصمتَ نابليونُ فى مرارةٍ ، وأسرعَ برجالِه حتى يصلَ إلى مِنْطقةٍ أكثرَ راحةً وأمناً ، فبلغَ دمنهورَ فى الثامنِ من يوليه ، وفيها التقطَ هو وجنودُه أنفاسَهم اللاهثة ، ثم تحركَ إلى « شبراخيت » ، حيث كان مراد بك فيها بسفنه وفرسانه .

وهناك ، وفى الثالث عشرَ من يولية سنة ١٧٩٨ دارت المعركة بينهما ، وكانت معركةً قاسيةً ، بددت حُلْمَ نابليون فى النزهةِ التى كان يحلُمُ بها ..

الريحُ هبَّت على سفنِه التى كانت قد وصلت إليه ؛ فضربت بعضَها ببعضٍ ،

(١) ضنوا : بخلوا . (٢) مكامن : مواطن خفية .

(٣) بشاشة فى وجه : طلاقة فيه .

ودفعتها نحو أسطولِ « مراد بك » ، فالتحم بها ، وغَرِقت بضعُ سفنٍ منها .

الفدائيون طارُوا كالصقورِ إلى أسطولِه ، وهبط بعضُهم على سفنِه ، وقتلوا غيرَ قليلٍ من رجالِه .

الفلاحون هبُّوا بما يملكون من وسائلَ دفاعيةٍ ؛ ليساعدوا الجيشَ المصرىَّ ، ويحاربوا العدوانَ الغاشمَ .

وهنا اهتز نابليون ، على زهوِه وجبروتِه ، ولكن رجالَه شدَّدُوا هجومَهم على أسطولِ مراد ، ووقعت منهم قنبلةٌ على سفينةِ « التموينِ » المصريةِ به ، ففَجرتْها ، وخاف بحارتُه ، فانسحبوا ، وبقى الفلاحونَ خلفَ رجالِ نابليون ، يقتلون ، ويجرحون ، ويخطَفُون ، ثم فرُّوا خوفاً من نيرانِه وقنابله .

تنفسَ نابليون نفساً طويلا ، مسروراً بانهزام مراد بك وانسحابه ، وانطلق بمن معه فى آثارِه ؛ حتى أدركه فى إنبابة ، وقد نظم قواتِه بين النيل والأهرام ، ووضع أسطولَه على ساحلِ هذه البلدة ، واستعد للمعركةِ الفاصلةِ مع الطاغيةِ الفَرَنسىِّ ، وخرج الشعبُ لمساندةِ مراد بك ، بقيادةِ السيد عمر مكرم ، الذى حملَ « البيرق » النبوىَّ ، وهتفَ بأبناءِ مصرَ ، للجهادِ ، ضد أعداءِ الوطنِ والدِّين .

ودارت المعركةُ ، وحاربَ مراد بك ، وانضمَّ إليه فى هذه الحرب إبراهيمُ بك زميلُه فى السيادةِ والحكمِ ، وبرز الشعبُ فى المعركةِ ، يناضلُ بكل ما أُوتِى من قوة ، ولكنها كانت قوةً متواضعةً[1] عاجزةً عن هزيمةِ المعتدين .

وسكتت المعركة ؛ لتسجلَ هزيمةَ مراد بك ، وانسحابَه إلى الجيزة ، بعد أن حرَّقَ الكثيرَ من سفنه ، ولتعلنَ فرارَ إبراهيم بك بفلولِه[2] من البلاد ، والتجاءه إلى سُورِيَة ..

---

(١) متواضعة : ضعيفة .

(٢) فلوله : جنوده المنهزمين .

ودخلَ نابليونُ الجيزةَ فى الثالثِ والعشرينَ من يوليه ، ووقف يدورُ ببصرِه فى خشوعٍ ، بين رجالِه ، وبين الأهرامِ بجلالِها وشموخِها ، وقال لجنودِه :

« تقدموا أيها الجنودُ ! واذكروا أن أربعينَ قرناً تنظرُ إليكم من فوقِ قممِ هذه الأهرامِ » .

وسارَ فى صلَف(١) ، فدخلَ قصرَ مراد بك بالجيزة ، وجلسَ على عرشِه ، وأمرَ رجاله أن يستولُوا على كلِّ ما تصلُ إليه أيديهم من نفائسِه ووثائِقه ومخفوظاتِه .. وفوجئ بين هذه المحفوظاتِ برسالةِ السيد محمد كريم إليه ، وهى تدعو إلى محاربةِ الفرنسيين وإنقاذ مصرَ من شرهم .. وعند ذاك تحولَ شكُّ نابليونَ فى هذا الرجلِ يقيناً ، وعرف أنه وطنىٌّ له خطرُه عليه وعلى وجودِه فى مصر .

---

(١) صلف : زهو .

(٧)

موقف الفرنسيين من البطل الإسكندرى

لعب الشكُّ فى البطلِ الإسكندرىِّ بعقلِ نابليون ، وخُيِّلَ إليه أنه لم يُخْلِصْ له ولا لرجالِه .

ومرت الذكرياتُ بخاطرِه واحدةً بعدَ واحدة .. منذ كان فى الإسكندرية ، وحينَ خرج منها فى رحلةِ العذابِ إلى دمنهور ، وشبراخيت ، وإنبابة ، والجيزة .

مرت بخاطرِه ، وهو فى مجلسِه بقصرِ مراد بك ، يجترها واحدةً واحدة .. ذكر مقاومةَ أهلِ الإسكندريةِ له ، وصلابةَ ابنِها البطلِ السيد محمد كريم . استعادَ صورةَ هذا البطلِ ، يتسلَّمُ سلاحَه منه ، وفى عينيه دهاءٌ وإصرارٌ على إنقاذِ وطنه . قفزت إلى ذهنِه أشباحُ موتاه حولَ عمودِ السوارى .. تراءى له منظرُ جنودِه وهم فى طريقِهم إلى دمنهور ، يِئنُّون[1] من التعب ، ويلهثُون من العطش ..

نهضَ فمشى خطواتٍ إلى شُرْفةِ القصر ، ثم عاد إلى مجلسِه ، وتمدَّدَ يجترُّ ذكرياتِه مرةً ثانيةً .. وعبسَ وجهُه ، حين تراءت له صورُ القَناصَةِ يتصيدون جندَه ، والفدائيين يقفزونَ كالشياطينِ على سفنه ، يُغرِقونَ ، ويقتلون ، ثم ينصرفون سالمين . وانتهى به مطاف[2] الذكريات إلى معركة إنبابة ، وما دار فيها من صراعٍ فى النيل ، وعلى الشواطئ ، ومن تفجيرِ مراد بك لسفنِه ، حتى لا تقعَ فى أيدى الفرنسيين .

---

(١) يئنون : يتوجعون . (٢) مطاف الذكريات : طوفانها بذهنه .

وقطع سلسلةَ ذكرياتِه ليسألَ نفسَه : من هذا الذى نظمَ مقاطعة الناسِ له ولرجالِه وهو فى طريقِه إلى دمنهور ؟! ومن الذى أوعزَ إلى القناصةِ أن يكمُنُوا لرجالِه ، ليتصيدُوا من يستطيعونَ منهم ؟ ومن الذى أثارَ الفدائيين ، لينقضُّوا على السفنِ الفرنسيةِ فى « شبراخيت » فيُغرِقوها ، وعلى البحارةِ فيقتلوهم ؟ ومن ... ؟ ومن ... ؟

وصمت قليلًا ، ثم تذكرَ تقاريرَ « كليبر » له ، وكانت كلُّها شكاوى وصراخاً من الروح الفدائيةِ فى الإسكندريةِ ، وأمثلةً دالةً على قوتِها ونشاطِها .

كان هذا القائدُ يعجبُ لجنودِه الذين يخرجون من معسكراتِهم ، ثم لا يرجعونَ إليها .. أو يخرجون بأسلحتِهم ثم لا يعودون بها .. وكان دهشتُه تزدادُ حين يسمعُ أن كثيراً منهم ضاعَ ضحية نساءٍ غررنَ بهم[1] ، حتى انتقمنَ منهم .. كما كان يعجبُ للتنظيماتِ الفدائيةِ التى كانت تعرفُ حركاتِ كتائبِه خارجَ الإسكندرية ، وتترصَّدُ لها[2] لتهجمَ عليها ، وتقتلَ من استطاعت من رجالِها . وهز نابليونُ رأسَه ، وقال :

« يبدو أن « كليبر » كان على حقٍّ حين اتهم السيدَ محمد كريم بأنه كان وراءَ أكثرِ هذه التنظيمات ، وحينَ عزله من منصبِه ، وقبض عليه ليرسلَه إلىَّ !!

واسترخى فى مجلسِه ، والشكوكُ فى البطلِ تملأُ عقلَه وقلبَه ، وعيناه سابحتانِ فى القصرِ بما تدل عليه زخارفُه ونقوشُه وهندستُه من ترفٍ ونعيم .

وفجأة فتحَ عينيه فى يقظةٍ وتنبُّهٍ .. لقد دخل عليه أحدُ رجالِه الذين يبحثونَ فى وثائقِ القصر ، وقال :

— انظرْ يا سيدى ! إنها رسالةُ السيدِ محمد كريم إلى مراد بك !

اعتدلَ نابليون ، وأخذ يقرأ الرسالةَ باهتمامٍ ، ثم قال لنفسه بصوتٍ مرتفعٍ .

---

(١) غررن بهم : خدعنهم . (٢) تترصد لها : تراقبها .

« وقعتَ يا كريِّم ! الآنَ وضحَ كلُّ شيء ! أصبح الشكُّ حقيقةً ثابتةً ! » .

وأصدرَ أمرَه فى الحالِ إلى « كليبر » ، ورجاله فى الإسكندرية :

ـــ أن يسارعوا ، فيقيدوه بالأغلالِ ؛ حتى لا يُفلِتَ من أيديهم .

ـــ أن يعتقلوا أتباعَه ومريديه ؛ حتى يشلُّوا حركتَهم .

ـــ أن يقبضوا على خَدمِه الذين يعرفونَ مواطن أموالِه ؛ فقد كان من المعروف عنه أنه غنىٌّ ، مفرطُ(١) الغنى ، وأنه يحتفظُ بأموالِه فى بئرٍ ، لا يعرفُها إلا خواصُّ خدمِه .

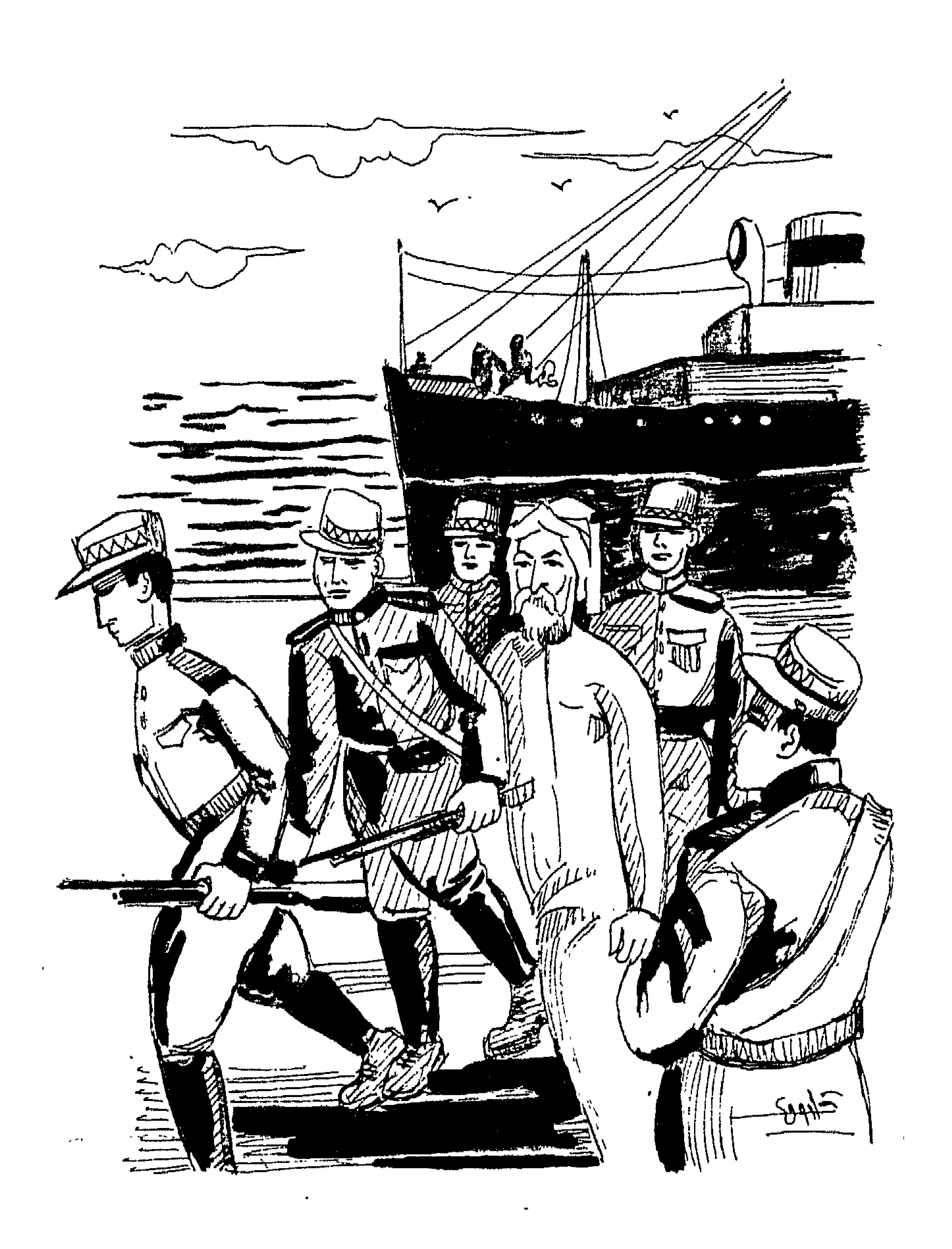
* * *

كان « كليبر » قد نقلَ السيدَ محمد كريم إلى إحدَى سفنِ الأسطول الفَرَنسىِّ ، تمهيداً لإرسالِه إلى نابليونَ فى القاهرة .. ومن هذه السفينةِ نُقِلَ إِلَى « رشيد » ، وعجَّلَ « مينو » حاكمُ « رشيد » بترحيلِه إلى القاهرة ، خوفاً من التفاف الناسِ به ، وحفاوتِهم(٢) بمقدَمِه ومُقَامِـهِ .. وفى اليومِ الرابـعِ من أغسطس كانَ على ظهرِ إحدى السفنِ للإسراعِ به إلى « بولاق » ، فوصل إليها فى عصر اليومِ الثانىَ عشرَ من أغسطس ، وهناك ، وبعد مغربِ الشمس كان الجندُ يقودونه من السفينةِ إلى معتقلِه ؛ حتى يأذنَ نابليونُ فى شأنِه بما يشاء .

---

(١) مفرط الغنى : واسع الغنى .

(٢) حفاوتهم به : احتفالهم وترحيبهم بمقدمه .



البطل السيد محمد كريم يقوده جنود فرنسيون
بعد الغروب من سفينته إلى الشاطئ

(٨)

محاكمة البطل واستشهاده

كان البطلُ مقتنعاً بنفسِه ، راضياً بجهادِه فى سبيلِ بلادِه .

وكان يعرفُ أن القوانينَ العسكريةَ قاسيةٌ ظالمةٌ ، ويعرفُ من ناحيةٍ أخرى أن الدفاعَ عن الوطنِ واجبُ كلِّ وطنيٍّ .. وأن المعتدين الغاصبين ربما يعقلونَ أو يعدِلون ، فينظرونَ إليه نظرة وطنى مخلص .. هكذا كان يفكرُ فتلعبُ به خواطرُه .

لم يَطُلْ به التفكير ، لقد سِيقَ سريعاً إلى محاكمةٍ عسكريةٍ أعدها نابليونُ له .. وكان المشهدُ رهيباً .. قاعةُ المحكمةِ فسيحةٌ يغشاها(١) الخوف ، بها منضدةٌ طويلة ، يتوسطُها الجنرالُ « ديبوى » ، وعن يمينِه وشمالِه أعضاءُ المحكمةِ ، بوجوهِهم الشقراء ، وشعورِهم الصُّفْرِ ، وعيونِهم الزرقاء ، وقد انحَنَوْا على المنضدةِ ، وتوقدَتْ وجوهُهُم بلهيبِ الغيظِ ، وتحولت زرقةُ العيونِ كُدْرَةً(٢) ، تَشِعُّ بالحقدِ والانتقامِ على الرجلِ الماثلِ أمامَهم ، أو الجانى فى زعمهم ، وهو السيدُ محمد كريم ، وإلى جانبِهم فَرَنسيٌّ ، يعرفُ العربية ، جاءوا به ليُترجِمَ كلَّ كلمةٍ عربية ينطق بها هذا البطلُ إلى لغتهم .

وبدأت المحاكمة .. البطلُ مرفوعُ الرأس ، معتدلُ القامة ، يَشِعُّ وجهُه بنورِ الإيمان ، وتُوحِي ملامحُه بقوةِ اليقينِ(٣) باللهِ تعالى وقضائِه .. ومع الإيمانِ واليقينِ نظراتٌ ساخرةٌ من دنيا الغربِ التى تنادى بالحريةِ فى بلادِها ، وتنساها

---

(١) يغشاها : يشملها . (٢) تحولت كدرة : تحولت مسودة .

(٣) اليقين : الاعتقاد الصادق .

خارجَ هذه البلاد ، وتزعُمُ أنها تدافع عن الحقِّ والعدالةِ والإخاءِ ، وهى تقتلُها ، وتعيشُ على ضحاياها .

ونادى الحارسُ : محكمة ! فانتبه البطلُ ، وجمع خواطرَه وذكرياتِه ، ثم وجَّهَ إليه رئيسُ المحكمةِ تُهْمَةَ الخيانةِ العظمى للجمهوريةِ الفَرَنْسِيةِ ، وإثارةِ أبناءِ الإسكندريةِ والبحيرةِ للثورة عليها .

أجابَ البطلُ فى كلماتٍ هادئةٍ مطمئنةٍ :

ـــ إن هذه الجمهوريةَ هى التى خانَتْ مبادئَها .. اغتصبَتْ وطنى ، وقتلَتِ الناسَ بلا شفقةٍ ولا رحمة ، لا لذنب سوى أنهم يدافعون عن بلادِهم ونسائِهم وأموالِهم .. لقد حطمتم سجْنَكم الرهيبَ (الباستيل) .. ثم ناديتم بشعارِكم[1] : حرية . مساواة . إخاء ! ولكنكم سُرْعان ما تنكرتُم لهذا الشعارِ .. فانطلقتُم من بلادِكم تسفِكون[2] دماءَ الشعوب ، وتنهبون خيراتِها ، وتصادرون حرياتِها ، وتغتصبون حقوقها وحريمَها ، وأصبح شعارُكم : الموتُ للشعوبِ ، والحياةُ لفرنسا ..

كانت كلماتُ البطلِ أشبهَ بالقنابلِ التى فجَّرَها فى هيئةِ المحكمةِ ؟ فقد كشفَتْ عن نبلِ دفاعِهِ الشرعى ، وانحطاطِ أغراضِهم الوضيعةِ الحقيرة ، فأصابتْهُم بهزَّةٍ عنيفة ، لكن رئيسَ المحكمةِ تماسكَ ، وقال ، فيما يشبهُ النصح ، له :

ـــ إنك بهذا تعرِّضُ نفسَكَ للإعدام !

فأجابه :

ـــ إذا كان دفاعى عن بلادى ، وقولُ الحقِّ سيقودُنى إلى الإعدامِ فمرحباً به .

دَهِشَ رئيسُ المحكمةِ لهذه الشجاعةِ .. واستمرَّ فى المحاكمةِ ، فأخرج رسالةَ

---

(١) بشعاركم : بما ترمزون به لأنفسكم . (٢) تسفكون : تريقون .

البطلِ إلى مراد بك ، وقال له :

ــ لقد عثْرنا على هذه الرسالةِ فى قصرِ مراد بك ، وهى بخطٍّ يدك .. وإثباتٌ قوىٌّ ضدَّك .

فرد البطل :

ــ نعم ! إنها رسالتى !. وإذا كنت آسَفُ على شيءٍ .. فهو أننى اعتمدتُ على هذا المملوكِ المغرور الذى لولا غرورُه ما كنتُ اليومَ ملقًى بين أيديكم .

وامتدت المحاكمةُ ، وفى النهايةِ صدرَ الحكمُ الذى يدلُّ على أن الحضارةَ الغربيةَ زيفٌ(١) وخداع ، وأن أهلَها يعرفون الحريةَ فى بلادِهم ، ولكنهُم فى غيرِها وحوشٌ فى غابة ، يلتهمون(٢) من يستطيعون التهامَه .. لقد قضت المحكمةُ على السيدِ محمد كريم بما يأتى :

ــ إعدامِه رمياً بالرصاص .

ــ مصادرةِ ما يملكُ من مالٍ وعَقار .

ــ افتداءِ نفسِه إذا شاءَ بثلاثينَ ألفَ ريال ، تؤدى قبل انقضاءِ أربع وعشرين ساعة .

قابل البطلُ الحكمَ بقلبٍ ثابتٍ ، ومرت الساعاتُ الأربعُ والعشرون ، وهو مصرٌّ على عدم دفعِ الفدية ، مع قدرتِه على دفعِها من مالِه ، أو بإشارة منه إلى الشعبِ الذى يُكبِرُه غايةَ الإكبارِ .

---

(١) زيف : زائفة غير أصيلة .　　(٢) يلتهمون : يبتلعون .



الزعيم السيد محمد كريم وهو ماثل
بين أيدى أعضاء المحكمة

(٩)

إعدام الزعيم البطل

لم يَقْبَلِ البطلُ أداءَ الفِدية ..

وكأنه كان يريدُ أن يضحّيَ بنفسِه ؛ ليظَلَّ رفاتُه(١) رايةً تُعلِنُ عن وحشيةِ الطغاةِ المستبدين ، وعن حضارتِهم الزائفة ، ولتظلَّ هذه الرايةُ تصرخُ فى المصريين أن يحرِّروا وطنَهم من كل أجنبيٍّ غاصب ، ثم إنه كان قوى الإيمانِ باللهِ تعالى ، وكان على يقينٍ من أنه إذا أرادَ له النجاةَ فلن ينالوا منه شيئاً ، وإذا شاء الموتَ فلن يُفْلِتَ منه ، ولو وقفت الدنيا كلُّها من ورائِه .

وعَرَف « نابليونُ » أنه أبى أداءَ الفِديةِ ، فأحسَّ بأنَّه أمامَ رجلٍ عظيمٍ وخطير(٢) ، وكانت المصائبُ قد تكاثرتْ على الطاغية ، فأسطولُه قد ضاع على يد الإنجليز ، والثَّوراتُ بدأت تهبُّ فى وجهه ، فربط بينها وبين وجودِ هذا البطل ، فأرادَ أن يزيحَه من وجهِه .

ومع مطْلَعِ اليومِ السادسِ من سبتمبر ظهرَ الزعيمُ الكبير .. ولكن على ظهر حمارٍ ، ويداه مكتوفتان ، والجنودُ الفرنسيونَ عن يمينِه وشمالِه ، ومن بين يديه(٣) ومن خلفِه فريقُ الزَّمرِ والطبل ... وطافَ به العدوُّ شوارعَ القاهرة ، وهو يظن أنه أذلَّه وأرهبَ غيره ، ولكنه أساءَ إلى نفسِه ؛ لأنه ألهب سُخْطَ الناسِ عليه ، وجعل من قلوبهم مراجلَ(٤) تغلِى للانتقامِ منه .

وساروا بالزعيمِ إلى ميدانِ السيدةِ زينب ، ثم سلكوا به شارعَ الصليبة ،

---

(١) رفاته : ما بقى من جسده .

(٢) خطير : عظيم الشأن .

(٢) من بين يديه : أمامه .

(٤) مراجل : أوعية .

ثم انتهَوْا به إلى ميدانِ « الرميلة » بالقلعة .. وهناك وقفوا به فى هذه الساحةِ الرحيبةِ ، وتركوه وسطَها مكبَّلًا مكتوفاً ، حيث انصبَّ عليه رصاصُ الجنودِ المكلفينَ قتلَه من كلِّ ناحية .

وسقط الرجلُ الشامخُ صريعاً .. سقط وهو يرددُ اسمَ ربِّه ووطنِه ، ومات مستريحاً ؛ لأنه أدَّى حقَّ وطنِه عليه ، ودقَّ أولَ مسمارٍ حقيقىٍّ فى نعشِ نابليون وحملتِه الفَرَنْسِيَّة .

لم يكتفِ الطاغيةُ الفرنسىُّ بمقتلِه ، بل أمر برأسِه فقطع ، وطاف به الجنودُ فى شوارعِ القاهرة ، والمنادى يصيحُ فى الشعب العظيمِ بأعلى صوتِه :

ـــ هذا جزاءُ من يخالفُ الفرنسيس .

وانتهى الطوافُ برأسِ البطل ، وظن نابليونُ أنه شَفَى نفسَه منه ، وأطفأ لهيبَ غيظِه .. وكان مريدُو البطلِ بين خوفٍ شديدٍ من الانتقامِ ، ورغبةٍ شديدة فى دفنِ جثمانِه الملقَى فى العراءِ .. فلما تمكنوا أن يقتربوا منه أعدوا له مقبرةً بالقلعة ، غيرَ بعيدةٍ من مكانِ استشهادِه(١) ، ودفنوه بها .

وظن نابليونُ أنه أسكتَ الألسِنةَ بمدافِعِه ، وقتلَ روحَ الجهادِ بنيرانِه ، ولكنه إنما قتل نفسَه ، ودمَّر(٢) وجودَه فى مصر .

فبعد مغادرَةِ الزعيمِ المصرىِّ للسفينةِ التى كان معتقلًا على ظهرِها بالإسكندرية تحطم الأسطولُ الفرنسىُّ ، إذ هجمَ « نلسون » بأسطولِه عليه فى « أبى قير » مع صُبح اليومِ الأولِ من أغسطس سنة ١٧٩٨ ، فحطمه وقضى على قوته ، ولو ظلَّ الزعيمُ على ظهرِ السفينةِ التى كان عليها فى ذلك اليومِ لماتَ غريقاً .. ولكن القدرَ كتب له النجاةَ من ميتةٍ لا خلودَ فيها ، وأبقاهُ ليموتَ موتَ الشهداءِ الخالدين .

---

(١) استشهاده : مقتله فى سبيل وطنه .　　(٢) دمر : حطم .

وفى اليومِ الخامسِ من أغسطس بدأت المقاومةُ الشعبيةُ لنابليون ، فى الخانكةِ ، وعلى مقربةٍ من القاهرة ، ثم فى الصالحيةِ بالشرقية ، فقاتل فيها الطاغيةُ إبراهيم بك زميلَ مراد بك ، وكان فى غايةِ الأسى لضياعِ أسطولِه فى أبى قير .

وفى الثالثَ عشرَ من أغسطس شبت الثوراتُ فى بعضِ قرى البحيرة ، وأخذت تنتشرُ فى أنحائِها ، حتى خاف الجنرال « مينو » حاكمُها التوغُّلَ(١) فيها ، وكتب إلى نابليون يقول :

« إن التوغلَ فى هذه الجهاتِ محفوفٌ بالمخاطر ؛ لأن معظمَ القرى فى تلك البلادِ محصنة » .

كانت هذه الانتفاضاتُ الصغيرةُ تشتعِلُ ثم تنطفئ ، ولكنها لا تنتهى ، وكانت كلُّها مصاحبةً لمحاكمةِ الزعيمِ البطلِ .. فلما تمت هذه المحاكمةُ لم تنتظرِ القاهرةُ ، بل اندلعت ثورتُها الكبيرة على الفرنسيين فى الحادى والعشرينَ من أكتوبر سنة ١٧٩٨ .. وقد اهتزَّ رجالُ نابليون أمامَ شعبيةِ هذه الثورةِ وصلابتِها ، ولم يخمدوها إلا بعد صراعٍ عنيف .. وقد عَلِمَ نابليون علْمَ اليقين بعد هذه الثورةِ أنَّ أملَه قد ضاع فى خداعِ المصريين ، وأنهم مصممون فى الدفاعِ عن بلادِهم ، وأنهم إن تراجعوا اليومَ فلن يتراجعوا غدا .

ظلت نيرانُ المقاومةِ تلتهبُ هنا وهناك ، فى الجماليةِ ، والمنزَلةِ ، ودِمياط ، وفى الصعيدِ ، وفى بنى سويف ، والمنيا ، والفيومِ ، وأسيوطَ ، وقِنا ، وجرجا ، وطهطا ، وأُسوانَ ، وغيرِها .. وتَعِبَ نابليون ، وتعِبَ رجالُه ، وتشتَّت قواهم هنا وهناك ، وهم يخرجونَ من معركةٍ ، ليدخلُوا فى غمارٍ(٢) أخرى .

ومن المعاركِ القويةِ التى خاضَها نابليون معركةُ أبى قير البريَّةِ فى الإسكندرية ؛ لصدِّ الجنودِ الأتراكِ الذين بعثت بهم الخلافة لقتاله .

---

(١) التوغل : التعمق .　　(٢) غمار : وسط .

وطالَعَ نابليون إحدى الصحف التى صدرت فى العاشرِ من يونية سنة ١٧٩٩ ، فقرأ فيها خبرا روَّعَه(١) ، هو تعرُّضُ البلاد التى هزمتها فرنسا للخروج من يدِها ، وهنا غادر نابليون مصرَ راحلًا إلى بلاده ، وترك جنودَه ، لثورةِ الشعبِ الثانية فى مارس سنة ١٨٠٠ .. وفيها صنعَ القاهريون البارودَ والقنابلَ ، وهجموا على مركزِ القيادةِ الفرنسيةِ فى جرأة مذهلة .. وفى غمارِها اغتال سليمانُ الحلبيُّ « كليبر » الذى عينه نابليونُ قائداً للحملةِ بعد رحيلِه ، وجاء بعده « مينو » الذى أعلن إسلامَه ، وسمَّى نفسَه عبدِ الله ، وتزوجَ مسلمة من رشيد ، ولكن ذلك لم يُغْنِ عنه شيئا ، فترك مصرَ بمن معه ، وخَرجُوا منها إلى غيرِ رجعة ، وفى أذهانِهم أصداءُ الهزائِم المرةِ التى قاسَوْها فى هذِهِ الحملةِ ، وعلى ألسنتِهم أحاديثُ لا تنتهى عن عظمةِ مصرَ ، وأصالةِ شعبِها العظيم .

---

(١) روَّعه : أفزعه .

ختام فى كلمات

تقدِّمُ الصفحاتُ السابقةُ خلاصةً مركَّزةً ، شديدةَ الإيجازِ ، لحياةِ السيد محمد كريم : ابنِ الإسكندريةِ ، وبطلِها ، ورائدِها فى مقاومةِ « نابليون » وحملتِه عليها .. وحياةُ هذا البطلِ كلُّها دروسٌ تنطقُ بعظمتِه ، وتلقى بأضوائِها على طريقِ الأجيالِ الناشئةِ ، فتهديها إلى ما هو أقومُ وأفضلُ ، ومن هذه الدروسِ أنه :

ــ كان عصاميًّا ، نشَّأَ نفسَه بنفسِه ، وصَعِدَ سُلَّمَ العَظمةِ بجهدِه ودأبه وإصرارِه ، فتحولَ من شابٍّ صدمتْه الأيامُ فى أبيه ، وتركته بغيرِ مهنةٍ ولا ميراثٍ إلى أعظمِ حاكمٍ ، شهدتْه الإسكندريةُ ، واطمأنت للحياة فى ظلِّ حكمه .. وكانت درجاتُ السُّلَّمِ عاليةً ومتعدِّدةً ، ولكنَّهُ كان يقفزُ فيها قفزاً ، حتى انتهى إلى قمتِها .

ــ لم يلجأ فى صعودِ هذه القمةِ إلى ما يلجأُ إليه أكثرُ الناس من طبلٍ وزمر ، أو مَلقٍ ورياء ، أو وسائلَ ملتويةٍ وحقيرةٍ ... وإنما كان عمادُه فى صعودِها ما امتاز به من نظافةِ الظاهرِ والباطن ، وطهارةِ اليدِ واللسان ، ومن العملِ الجادِّ المخلص ، ومشاركةِ الناسِ فى السراءِ والضراءِ[1] ، وإسداءِ العونِ لذوى الحاجاتِ منهم .

ــ ضرب أروعَ مثلٍ فى نضالِه عن مدينتِه ووطنِه .. وقف فى وجهِ « نابليون » علانيةً بالإسكندريةِ ؛ حتى أرهقَه ، وكبده[2] خسائرَ غيرَ قليلةٍ فى الأرواحِ والأموالِ والعتادِ[3] ، ثم خادعه فخيَّلَ إليه أنه معه ، وحاربه سرًّا خارجَ الإسكندرية ، وعلى طولِ الطريقِ إلى القاهرة ؛ حتى حوَّل حملتَه

(١) الضراء : الشدة . (٢) كبده : كلفه .
(٣) العتاد : المعدات .

من نزهةٍ كان يحلُمُ بها إلى جحيمٍ لا يُطاق .

— كان نَموذجاً فذًّا فى وطنيته ... دافع عن مدينتِه فى وقتٍ خمدت فيه الوطنيةُ بين سجونِ العثمانيين وسياطِ المماليك . وقف فى وجهِ « نابليون » ، وقد خاف غيرُه من جبروتِه . غرَّرَ[١] بهذا القائدِ الذى أعادَه حاكمًا للإسكندريةِ ، واستحلَّ التغريرَ به فى سبيلِ وطنِه الحبيبِ مصر . استعانَ بمراد بك على حربِه ، وهو لا يحبُّ المماليك ، ولكنه يكرهُ الفرنسيين أكثرَ منهم ، ويخشى خطرَهم على بلادِه . ظلَّ يكافحُ بما يستطيعُ ، لا يفترُ ولا يتوقف .

— قدَّم روحَه فداءً لمصر ، فكان أولَ شهداءِ الوطنيةِ المصريةِ فى العصر الحديث ، وأبى أن يساومَ[٢] عليها بالمال ، وأصر على أن يجعلَ من رفاتِه علَماً يصرخُ فى الأجيالِ أن يصونوا للبلاد حريتَها وكرامتَها .

— بلغَ بتضحيتِه ما يريدُ ؛ فقد كانَ « نابليون » يحاكمه وانتفاضاتُ المصريين عليه لا تهدأ ، وقضى بإعدامه ، فهبت ثورةُ القاهرةِ الأولى فى وجهِ الطاغية ، وما زالت حتى خرجَ من مصر يتسللُ[٣] كما يتسلل الهاربون ، ثم كانت ثورتُها الثانية ، وتبِعها خروجُ الفرنسيين من مصرَ إلى غير رجعة .. ونمَتْ روحُ الوطنيةِ المصريةِ ، فتخلصت البلادُ من الحكمِ العثمانىِّ والمملوكىِّ ، ثم تخلصت من الاستعمارِ الإنجليزى ، لتعيش تحت راياتِ الحريةِ والعزةِ والكرامةِ .

---

(١) غرر : خدع . (٢) يساوم عليها : يشتريها بمال يفديها به .

(٣) يتسلل : ينسحب فى الخفاء .

رقم الإيداع : ٤٩٥٩ / ٨٩
الترقيم الدولى : ٥ ـــ ٠٥٢٠ ـــ ١١ ـــ ٩٧٧

مطبوعات مكتبة مصر

عظماء قهروا اليأس

١ ــ حافظ إبراهيم
٢ ــ محمود سامى البارودى
٣ ــ عباس محمود العقاد
٤ ــ أحمد عرابى
٥ ــ طه حسين
٦ ــ مصطفى كامل
٧ ــ سعد زغلول
٨ ــ على مبارك
٩ ــ محمد فريد
١٠ ــ جمال الدين الأفغانى
١١ ــ محمد كريم
١٢ ــ عمر مكرم
١٣ ــ عبد الله النديم
١٤ ــ الإمام محمد عبده

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

الثمن ١٠٠ قرش

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه